

مخطوط دفتر الأحباس وأهميته في إثراء تاريخ مدينة قسنطينة

د. عبد القادر دحدوح

مقدمة: ترجع بداية تعرفنا على مخطوط دفتر الأحباس خلال شهر ديسمبر 2010 بالمكتبة الوطنية الحامة، وبعد إطلاعي عليه وجدته يضم معطيات تفس جوانب مختلفة من تاريخ مدينة قسنطينة خلال الفترة الممتدة بين منتصف القرن العاشر هجري السادس عشر ميلادي ومنتصف القرن الحادي عشر هجري السابع عشر ميلادي، وهو الأمر الذي دفعني إلى القيام بتحقيقه والعمل على نشره في أقرب فرصة ممكنة، وفي هذا المقال المتواضع أحاول تقديم المخطوط، والتعريف بمحتوياته وأهميته، ومدى إسهامه في إثراء تاريخ مدينة قسنطينة، والكشف عن معطيات جديدة تخص مجالات مختلفة تاريخية وثقافية ودينية واجتماعية واقتصادية وعمرانية.

أولا/ بطاقة تعريفية للمخطوط:

1- عنوان المخطوط: لقد سجل عنوان المخطوط ضمن مقدمة مقتضبة للناسخ وفق الصورة التالية "دفتر الأحباس"، بينما سجل في فهرس المكتبة الوطنية بعنوان "دفتر الحبوس لمدينة قسنطينة"، ويبدو أن العنوان الأول هو الأصح إلا أن إضافة عبارة مدينة قسنطينة تعد ضرورية ليصبح العنوان واضحا ودقيقا بصورة أكثر.

2- مكان حفظ المخطوط: يوجد هذا المخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية- مكتبة الحامة- بقسم المخطوطات تحت رقم: 3568، وقد كان في الأصل محفوظا بمكتبة الشيخ رابح بونار، ثم قدم هدية للمكتبة قبل سنوات قليلة.

3- حجم المخطوط: المخطوط متوسط، حيث يقدر عدد أوراقه بـ36 ورقة، ضاع جزء من الورقة رقم 6، ومقاسات المخطوط تقدر بـ17×45سم، ومن مجموع الأوراق المذكورة نجد وجه الورقة الأولى خاليا من الكتابة، ونفس الحال بالنسبة للورقة رقم 11 التي تخلوا من كتابة الظاهر (11ب)، بينما تخلو

- أستاذ محاضر ب في علم الآثار الإسلامية- قسم التاريخ- جامعة منتوري- قسنطينة.

الورقة رقم 12 من كتابة الوجه (12أ)، ويظهر من خلال تتبع نص المخطوط وتسلسل فقراته أن الورقين 11 و 12 أضيفتا إلى المخطوط في فترة لاحقة، حيث تعد الورقة رقم 13 مكملة للورقة رقم 10 وتالية لها.

4- حالة الحفظ: المخطوط في جزء منه حالته جيدة، بينما تعرضت بعض الصفحات وهي قليلة إلى ضياع بعض الأجزاء منها خاصة الورقة الأولى والورقة رقم 6، كما أن بعض الصفحات سجلت فيها فقرات وتعليق في الهامش (الطرة) لم تعد تظهر بعد عملية التجليد.

5- نوع الخط: كتب المخطوط بخط النسخ المغربي، إلا أنها ليست بخط نفس الخطاط، حيث ترجع كتابتها إلى أكثر من ناسخ، خاصة وأن المخطوط وإن كانت بداية نسخه في سنة 1024هـ/1615م إلا أنه يتضمن نصوصا ألحقت به خلال سنوات لاحقة تصل إلى غاية سنة 1057هـ/1647م.

ثانيا/ كاتب المخطوط: يرجع نسخ غالبية المخطوط إلى الشيخ محمد بن أبي عبد الله بن نعمون، حيث من بين 36 ورقة يضمها المخطوط نجد عددا قليلا من الأوراق التي لم تنسخ بخط يده، وهي تتمثل في: الورقة رقم 11أ، الورقة رقم 12ب، نصف ظهر الورق 19ب، الورقة 34ب، والورقة 35، و الورقة 36، وقد كان ابن نعمون يختم بعض النصوص بتوقيعه وتوقيع الشاهد عبد اللطيف.

أما بقية الأوراق فهي بخط عبد الرحمن بن باديس (الورقة 11أ و الورقة 12ب، و الورقة 20ب، والورقة 36) وأحمد بن سعيد (الورقة 11أ)، وبالإضافة إلى هؤلاء هناك نصوص أخرى تحمل أسماء وتوقعات في بعض الأحيان بطرة بعض الصفحات، وفي الغالب ما كانت الكتابات المسجلة في الهامش أو الطرة مسجلة في فترة لاحقة تتضمن ما طرأ على بعض الأوقاف من تغيرات من بيع أو خراب أو معاوضة وغير ذلك، يسجل فيها التاريخ أحيانا وأحيانا أخرى من دون تاريخ.

أما أصل النصوص المنسوخة فهي ترجع في كتابتها وتحريرها الأصلي إلى عدة كتاب، وبحضور شهود عدول مختلفين من فترة إلى أخرى، ومن بين الكتاب الذي وردت أسماءهم نذكر: حسن بن جمعة المرواني الكتاب الذي ورد اسمه في وقفية مؤرخة بذى الحجة 958/ديسمبر 1551، والشيخ الفقيه الإمام أبي زكرياء يحيى الفكون بن الشيخ أبي عبد الله محمد الفكون بتاريخ رجب 969/مارس 1562، وعبد الله محمد بن يحيى بن باديس في ربيع الثاني 1023هـ/ماي 1614م.

ثالثا/ تاريخ المخطوط: يعد المخطوط المشار إليه نسخة مستنسخة من مخطوط أصلي جمعت فيه أحباس وأوقاف مدينة قسنطينة، وهو يتضمن نصوص وقفية ترجع إلى فترات مختلفة، تتراوح تواريخها بين

جمادي الثانية 669هـ/جانفي- فيفري 1271م و 1057هـ/1647م، ويمكن القول أن النسخة الأصلية من المحتمل جدا أنها تعود إلى منتصف القرن 10هـ/16م، حيث ورد في الورقة 9 من المخطوط ما نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما
هذا دفتر مبارك إن شاء الله يشتمل على الربع الموقوف على المجاورين بمكة المشرفة وعلى الربع الموقوف على المقامات والسبابل من قسنطينة.

وكتب بتاريخ أوائل محرم الحرام عام واحد وستين وتسعمائة¹.

بينما دلت مقلمة بعض الأجزاء من المخطوط على تاريخ النسخ دون الإشارة إلى تاريخ كتابتها في الدفتر الأصلي، ومن الأمثلة على ذلك ما نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

هذا زمام مشتمل بحول الله تعالى وقوته على أوقاف مساجد قسنطينة ومدارسها، الحمد لله تعالى بمجته نقول من دفتر الأحباس بقصد البحث على ما أهمل من الاحباس وذلك ما يذكر بعد بتاريخ أوائل قعدة الحرام من عام أربعة وعشرين وألف².

ومن الأمثلة أيضا ما نصه: بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما هذا زمام مبارك إن شاء الله تعالى يشتمل بحول الله تعالى وقوته على أوقاف المدارس بمدينة (كذا) قسنطينة عمرها الله تعالى بذكره نقلت من دفتر الاحباس للبحث عنها وذلك بتاريخ أوائل حجة الحرام من عام أربعة وعشرين وألف³.

وبالإضافة إلى هذه النصوص والتي منها ما يشير صراحة إلى تاريخ خطها في النسخة الأصلية، ومنها ما يشير إلى تاريخ نسخها في المخطوط الذي بين أيدينا دون ذكر تاريخ كتابتها في المخطوط الأصلي، هناك نصوص سجلت في الدفتر المنسوخ سواء في فترة النسخ أو في فترات لاحقة وهي مأخوذة من وثائق أصلية لم يسبق وأن نقلت إلى المخطوط الأصلي للدفتر، وتلك الوثائق تعود إلى فترات مختلفة.

رابعا/ محتوى المخطوط:

1- أوقاف الضعفاء (الورقة 1أ - الورقة 5أ): يضم هذا العنصر أوقاف الأراضي والجنات المخصصة للفقراء والضعفاء.

2- بيان الأرض الموقوفة على الجامعين (الورقة 5ب - الورقة 6أ): في هذا العنصر سجلت أوقاف الأراضي والجنات المخصصة للجامعين الأعظمين والمقصود بهما الجامع الكبير وجامع القصة.

3- بيان أوقاف الضعفاء داخل مدينة قسنطينة (الورقة 6ب - الورقة 9ب): يبدأ هذا العنصر بعرض أوقاف الخلات التجارية والفنادق والتربيعات بأسواق المدينة في كل من سوق الكمادين، سوق الغزل، سوق الدهانين، سوق الصباغين، سوق الصاغة، سوق الحطابين، سوق اعلا رايدة الخراطين وملحلة المصاصة، سوق الحناية، سوق باب الوادي، سوق أسفل العطارين، سوق القلالين، سوق الرقاقين، سوق السمادين، سوق الحدادين، سوق القصاعين، سوق زقاق البلاط، سوق رحبة الصوف، سوقة بن ثعلب، شارع اليهود.

وبعد الخلات التجارية سجلت أوقاف الدور بكل من حي باب الوادي، حومة المصاصة، زنقة الخراطين، حجرة البير، غدير أبي الغارات، سوقة باب القصة، محلة النغاش، رؤوس الدواميس، باب القصة، ملحمة المعصرة، رحبة الصوف، محلة الراحة، باب الجاية، الزقاق الضيق، ثم أوقاف المدابع ويعود بعد ذلك إلى ذكر بعض الجنات والأراضي والخلات والدور.

4- الربع الموقوف على المجاورين بمكة المشرفة والربع الموقوف على المقامات وعلى السبائل (الورقة 9ب - الورقة 10ب، 13أ): يبدأ بذكر وقفية واحدة مخصصة للمجاورين بمكة المشرفة فم ينتقل إلى أوقاف قراء القرآن على بعض الأموات من علماء وأعلام بالمقامات التي دفنوا بها، ثم يذكر الأوقاف المخصصة لجلب الماء إلى السبائل بالمدينة والتمثلة في سبالة الموقوف، سبالة المصاصة، سبالة باب الوادي، سبالة رحبة الصوف، سبالة سوق الحدادين، سبالة أسفل العطارين.

5- أوقاف خبز شهر رمضان على الضعفاء (الورقة 13أ - الورقة 13ب): وفيها نصوص وقفية موجهة لشراء الخبز وتقديم المساعدة للفقراء بالمدينة خلال شهر رمضان المعظم، وقد أوقفت عليهم فيه حوانيت وأراضي وجنات مختلفة.

6- أوقاف طلبة العلم (الورقة 13ب): وفيه سجلت أوقاف الحوانيت والدور المخصصة لطلبة العلم بالمدينة.

7- أوقاف خبز المساجين (الورقة 13ب - الورقة 14أ): سجلت في هذا العنصر أوقاف الحوانيت والدور والأراضي والجنات الموجهة لشراء خبز المساجين.

8- أوقاف الدور والخوانيت على الجامعين (الورقة 14أ - الورقة 16ب): وفيه سجلت أوقاف موجهة للجامع الكبير وجامع القصبة والتي تشمل الدور والخوانيت وسائر المحلات التجارية من فنادق وتربيعات ومدابع ومعاصر وغيرها والمتواجدة بكل من سوق الرهادنة، سوق الصاغة، سوق القضاطين، سوق العطارين، سوق الحدادين، سوق السمادين، سوق التجارين، سوق الزياتين، سوق القصاصين، سوق رحبة الصوف، سوق الحدادين، سوق الحلفائين، سوق زقاق البلاط، سوق غدير ابي الغارات، رايدة الخراطين والسراجين والسكاجين، سوق الشهود، سوق الصفارين، أسفل العطارين والقلالين، سوقية بن ثعلب.

9- أوقاف المساجد والمدارس والزوايا (الورقة 16ب - الورقة 34أ): في هذا العنصر سجلت أوقاف الأراضي والجنات والمحلات التجارية والدور على المساجد والمدارس، وهو يبدأ أولاً بعرض أوقاف المساجد والتي نذكرها كما يلي: مسجد الشيخ سيدي مفرج، مسجد بن قومة، مسجد الشمني، مسجد بن صباحة، مسجد السوقية المعروف بالراشدي، مسجد بني فرغان، مسجد يمن، مسجد قيس، مسجد القرائن المعروف بالمناقي، مسجد الشيخ يومعزة، مسجد الشيخ سيدي ابي الحسن علي بن مخلوف، مسجد النفاش، مسجد ابن هجام، مسجد القرائن، مسجد الحدادين، مسجد التجارين، مسجد بن قنوش، مسجد السمادين، مسجد باب الوادي، مسجد بن عناب، مسجد المراكشي ابو عبد الله الشريف، مسجد الكتاني، مسجد بني موسى، مسجد حبيب، مسجد الأندلسي، مسجد ابن الريم، مسجد الكومي المعروف بابي عبد الله الصفار، مسجد بن عبود المعروف بمسجد شداد، مسجد ابن ابي العباس، مسجد الفوالين، مسجد القريح المعروف بمسجد سيدي ميمون، مسجد العنابة، مسجد البطحا المعروف شقفة، مسجد رحبة بن سعيد المعروف بالقروي، مسجد بن حسون، مسجد سيدي راشد، مسجد ابن ابي رغبة، مسجد بن عشابة، مسجد الحواري المعروف بمسجد خزر، مسجد الأحواض المعروف بابي عبد الله محمد النجار، مسجد الشيخ سيدي عبد الله بن أبي معزة، مسجد الشيخ البيازري، مسجد الخراطين المعروف بمسجد الخرازين، مسجد الباباري، مسجد الشريف المشرف، مسجد مقعد صنهاجة، مسجد كرامة، مسجد بن زوينق، مسجد فليو الشرقي، مسجد حفصة، مسجد بن منديل، مسجد الحواري بالطاية، مسجد افالوا المعروف بمسجد سيدي ادريس، مسجد سيدي مغرف، مسجد بن ترينيت المعروف بمسجد سيدي منجل، مسجد البلاط.

وبعد المساجد يعرض المخطوط أوقاف المدارس وبعض الزوايا والمتمثلة في: مدرسة ابن البني، مدرسة بن مناد، المدرسة الشرقية، مدرسة ابن واعر، مدرسة سيدي عبد الهادي، مدرسة الرقاقين، مدرسة بني

الفكون، زاوية ابن شقشوق، مدرسة الصباغين، زاوية ابن القاضي، زاوية القفصي، مدرسة سيدي مسلم الحواري.

وبالإضافة إلى هذه العناوين والمخاور الكبرى يضم المخطوط نصوص ووقيات موجهة لأغراض مختلفة يرجع تسجيلها في المخطوط إلى فترة لاحقة وهي تتخلل بعض أوراق المخاور السابقة الذكر وأوراق تالية له. خامسا/ أهمية المخطوط: للمخطوط أهمية بالغة تخص جوانب مختلفة نلخصها فيما يلي:

1- الجانب التاريخي: يضم دفتر الأحباس من الناحية التاريخية نصوصا ترجع إلى ثلاث فترات متباعدة: الفترة الأولى: تخص العهد الحفصي، حيث ترجع إلى هذه الفترة عدة أوقاف منها وقف يرجع إلى جهادي الثانية 669هـ/جانفي فيفري 1271م، ووقف آخر مؤرخ بربيع الأول 715هـ/ جوان جويلية 1315م، ووقف يعود إلى سنة 784هـ/1382-1383م، وخلال هذه الفترة كانت مدينة قسنطينة تابعة للحكم الحفصي، فقد كانت سيطرة الحفصيين على المدينة منذ عهد أبي زكريا الحفصي (625-647/1228-1249) في سنة 626هـ/1229م⁴، واستمرت إلى غاية القرن 10هـ/16م.

الفترة الثانية: تمثل المرحلة الانتقالية من الحكم الحفصي إلى الحكم العثماني، وهي الفترة التي اختلفت بشأنها النصوص والدراسات التاريخية، وهي ليست بفترة قصيرة ولا تزال غامضة، حيث لا يعرف متى كان دخول العثمانيين إلى المدينة بشكل دقيق، فقد اختلفت النصوص التاريخية بشأنه⁵، وفي جميع الأحوال فإن الفترة تمتد من سنة 923هـ/1517م على حسب فايسات (Vayssettes)⁶، وإلى غاية تعيين قسنطينة عاصمة لباليك الشرق الجزائري في سنة 975هـ/1567م⁷، وإلى هذه الفترة ربما ترجع كتابة النسخة الأصلية للدفتري، حيث جاء في الورقة التاسعة من المخطوط ما نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

هذا دفتر مبارك إن شاء الله يشتمل على الربع الموقوف على المجاورين بمكة المشرفة وعلى الربع الموقوف على المقامات والسبائل من قسنطينة وكتب بتاريخ أوائل محرم الحرام عام واحد وستين وتسعمائة⁸.

إن هذا النص وإن كان لا يؤرخ صراحة إلى تاريخ جميع أجزاء الدفتري الأصلي إلا أنه على الأقل يشير إلى أن تاريخ دفتر الأحباس الخاصة بمكة المشرفة والمقامات والسبائل بقسنطينة يعود إلى محرم 961هـ/ديسمبر 1552م، وهي السنة التي ترجع إلى الفترة الانتقالية المذكورة، كما أن المخطوط يضم

العديد من الأوقاف ذكرت فيها نقودا و عملات حفصية مثل الدرهم الناصري، وهو عملة حفصية كان ظهر في أول أمره في عهد السلطان ابو عمرو عثمان بن محمد (839-893هـ/1435-1488م) واستمر الأمراء الحفصيون بعده في ضرب هذا النمط من الدراهم⁹، وفي هذا تأكيد على أن المدينة كانت لا تزال خلال هذه الفترة تتأرجح بين الحكم الحفصي من جهة والحكم العثماني من جهة ثانية.

الفترة الثالثة: تخص الفترة العثمانية حيث تبدأ من سنة 975هـ/1567م وإلى غاية سنة 1057هـ/1647م، وإن كانت النسبة الغالبة مؤرخة بسنة 1024هـ/1615م، وهي السنة التي تم فيها إعادة نسخ المخطوط وزيدت فيه نصوص أخرى، بينما الأوقاف التي ترجع إلى ما بعد سنة النسخ الأولى تكون ألحقت في المخطوط خلال الفترات اللاحقة.

وبالإضافة إلى البعد التاريخي فالمخطوط يحتوي على معطيات متنوعة يمكن أن يستفاد منها في مجالات بحث مختلفة، فقد ورد في المخطوط أسماء العديد من الفقهاء والكتاب والشهود، وناظري الأوقاف وأسماء الأماكن والمواضع بالمدينة وخارجها، وأسماء المساجد والزوايا والمدارس والأسواق والأحياء والحومات والشوارع والدروب والمقاييس والأوزان والعملات وغيرها، وفي هذه الدراسة نود تقديم صورة حول عمران مدينة قسنطينة من خلال هذا المخطوط.

2- الجانب الاقتصادي: يحتوي المخطوط على معطيات جد هامة تخص الجانب الاقتصادي لمدينة قسنطينة، فهو يعطينا أسماء العديد من الأسواق ومواضعها داخل المدينة وخارجها، كما يعطينا أسماء لعدة ورش حرفية منها المناول الخاصة بالحياكة والحلات الخاصة بصناعة الفخار والآجر والقرميد، فضلا عن الحرف والصنائع التي تدل عليها أسماء الأسواق المتخصصة مثل سوق الحدادين وسوق الصاغة وسوق الصفارين وسوق الخرازين وسوق السكاجين وسوق الرقاقين، وسوق الشواشين وسوق الصباغين وسوق النجارين وسوق الخراطين، وسوق الدباغين وسوق السراجين.

وبالإضافة إلى الأسواق نجد في الدفتر أسماء بعض العملات التي كانت متداولة والتي نذكر منها: الدينار، الدينار الناصر، الدينار السليماني، الريال، الدرهم، الدرهم الناصري، الخروبة، الفلس، وأحيانا يقدم لنا قيمة صرف بعض العملات، ومن الأمثلة على ذلك: الدينار السليماني صرفه أربعة وستون درهما جليدا.

كما يعطي لنا دفتر المقاييس والأوزان و المكييل التي كانت مستعملة بالمدينة، فأما بالنسبة لمقاييس المساحات فهي تتعلق خصوصا بالأراضي، وقد قدرت بمقاييس ترتبط أحيانا بكمية القمح الذي يزرع فيها مثل الرقعة التي حددت مساحتها ببنر "عشر ثمنات"، والرقعة التي "بنرها ثمان ثمنات" وغيرها، وأحيانا ترتبط بالوقت الذي تستغرقه عملية الحرث: مثل المطيرة والجابدة ويبدو أنها مصطلحات محلية لا تزال مستعملة إلى يومنا هذا في مناطق مختلفة من الجزائر، وأحيانا بما كان معروفا عبر التاريخ من وحدات قياس مثل الذراع.

3- الجانب الثقافي: يظهر الجانب الثقافي في المخطوط من خلال عرضه لأسماء العديد من العلماء والمشايع والفقهاء والأئمة والقضاة والكتاب والعدول، وهناك العديد من المشايخ من لم يسبق وأن ذكرته كتب التراجم ولا نعرف عن حياتهم وعن علمهم شيئا، ومن ثم فالمخطوط يقدم لنا أسماء جديدة نضيفها لقائمة علماء ومشايخ مدينة قسنطينة.

وبالإضافة إلى أسماء العلماء يقدم لنا المخطوط أسماء العديد من المؤسسات الدينية والثقافية، والمتمثلة في المساجد والمدارس والزوايا، فأما بالنسبة للمساجد فعلى حسب المخطوط كان بالمدينة 78 مسجدا، منها مسجدان جامعان وهما الجامع الكبير وجامع القصة، وأما بالنسبة للمدارس فقد ورد البعض منها في صيغة مدرسة والبعض الآخر في صيغة كتاب، وقد يفيد هذا في معرفة مستويات التعليم حيث يمكن القول أن الكتاب كان يمثل المرحلة الأولى وهي المرحلة الإعدادية بينما المدرسة كانت تمثل مرحلة متقدمة من التكوين، وتزداد هذه القراءة وضوحا أكثر لما نعود إلى دفتر أوقاف صالح باي الذي حددت فيه عدة شروط تضبط من خلالها برامج التدريس وشروط التحاق الطلبة واستمرارهم بها وبيان أجرة الأساتذة والموظفين ومنح الطلبة ووظيفة كل قسم وقاعة من قاعات المدرسة، كالغرف الخاصة بمبيت الطلبة وقاعة التدريس والمطبخ وغيرها¹⁰، وهي الشروط التي يظهر من خلالها أنها كانت تخص مدرسة أعلى من أن تكون كتابا.

وفي نفس الجانب تظهر الأوقاف في عمومها وعلى اختلاف المجالات والجهات التي موقوفة عليها مدى وعي أهل المدينة بتعاليم الدين الإسلامي التي تدعوا إلى البر والإحسان والمبادرة إلى الخير بمختلف أشكاله، وبفضل ذلك الوعي بنيت العديد من المساجد والمدارس والكتاتيب والزوايا التي تعد الركيزة الأولى والأداة الأساسية لنشر تعاليم الدين الإسلامي بين سكان المدينة وتكوين الطلبة والأئمة.

4- الجانب الاجتماعي: تبرز أهمية المخطوط في هذه الجانب في أسماء الأعلام الواردة فيه والتي يستدل من خلالها التركيبة البشرية التي كانت تتشكل منها مدينة قسنطينة، حيث يظهر أن سكانها كانوا ينتمون إلى أعراق مختلفة، منهم العرب ومنهم البربر ومنهم الأتراك ومنهم اليهود، كما يظهر من تلك الأسماء أن المدينة استقطبت أناسا من أماكن مختلفة حيث نجد فيهم البجائي والتلمساني والصدراي والقواسي والعلمي والجزولي والمكناسي والمراكشي و التونسي والجري والاربيصي والبزري والبلنسي وغيرهم.

كما يظهر من المخطوط التكاثر الاجتماعي بين سكان المدينة وذلك من خلال الأوقاف الموجهة للفقراء والضعفاء والمساجين فضلا عن المساعدات التي كانت تقدم لهم خلال شهر رمضان المعظم، فقد خصصت أوقاف كثيرة لهذه المناسبة، كما أظهر أهل المدينة من خلال المخطوط تكاتفهم مع الحجاج سواء المارين بالمدينة أثناء رحلتهم أو أثناء إقامتهم بمكة المشرفة.

5- الجانب العمراني: تعد المصادر التاريخية التي تتحدث عن عمران مدينة قسنطينة خلال العهد العثماني قليلة جدا، حيث لا تزال الكثير من الدراسات الحديثة تعتمد على ما كتبه الفرنسيون عن المدينة سواء عشية دخولهم إلى المدينة أو بعد ذلك، وأخص بالذكر هنا دراسة مرسبي (Mercier)¹¹ التي تعد مصدرا أساسيا في هذا الموضوع، لكن تبقى هذه الدراسة بحاجة إلى إثراء ولا يتم هذا إلا من خلال الرجوع إلى المصادر خاصة تلك التي لم يطلع عليها مرسبي في دراسته، ونخص بالذكر هنا سجلات المحكمة الشرعية¹²، ودفتر أوقاف صالح باي¹³، وسجل الوفيات¹⁴، ودفتر الأحباس الذي نحن على أبواب الانتهاء من تحقيقه، والذي من خلاله وقفنا على مدى أهميته في إثراء دراسة مرسبي¹⁵.

وتعود أهمية المخطوط الذي بين أيدينا إلى أنه يمكننا من خلاله إعادة تصور التخطيط أو النسيج العمراني لمدينة قسنطينة وخلال فترة متقدمة من العهد العثماني، بينما ترجع السجلات والمصادر المذكورة إلى فترة متأخرة من العهد العثماني، حيث تؤرخ سجلات المحكمة بين سنتي: 1202-1253هـ/1787-1837م¹⁶، ويؤرخ سجل الوفيات بسنة 1256هـ/ 1840-1841م¹⁷، في حين نشر مرسبي دراسته في سنة 1878م وهو يتحدث فيها عن مدينة قسنطينة عشية احتلالها في سنة 1837 من طرف الفرنسيين¹⁸.

ولعل من أهم الجوانب العمرانية التي نجدها بالمخطوط أسماء أبواب المدينة والشوارع والأزقة والدروب، وأسماء الأحياء الرئيسية منها والثانوية، وأسماء المساجد والمدارس والزوايا ومواقعها بالمدينة،

وأسماء الأسواق والفنادق والتربيعات والحمامات والكوشات والأفران وبعض الورش الحرفية والصناعية¹⁹.

الخاتمة: إن مخطوط دفتر الأحباس يعد مصدرا هاما واكتشافا جديدا سيكون له دور بالغ في الكشف عن جوانب مختلفة من تاريخ مدينة قسنطينة خلال منتصف القرن 10هـ/16م وإلى غاية منتصف القرن 11هـ/17م، وتزداد أهمية المخطوط أكثر إذا علمنا بأنه يضم معلومات جد هامة تخص الفترة الحفصية، وهي الفترة التي تقل حولها الكتابات والنصوص التي تتعرض للجانب العمراني للمدينة.

ومن خلال العرض السابق يظهر مدى أهمية المخطوط بالنسبة للدراسات التي قتم بمدينة قسنطينة خلال الفترة التاريخية المذكورة من جميع جوانبها، التاريخية والثقافية والدينية والاجتماعية والاقتصادية والعمرانية، فالمخطوط مثلما رأينا يضم معلومات قيمة تخص هذه الجوانب، وهي تحمل معطيات جديدة لم يسبق، وأن عثر عليها في المصادر والنصوص التاريخية المعروفة المنشورة منها والمخطوطة.

الهامش:

- 1- الموافق: ديسمبر 1552م.
- 2- الموافق: أواخر نوفمبر 1615م.
- 3- الموافق: أواخر ديسمبر 1615م.
- 4- عبد الرحمن (ابن خلدون)، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 1992، ج 6، ص 336. أنظر أيضا: روبرت برنشفيلد، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، د.ت، ج 1، ص 50-51.
- 5- لمعرفة جميع الآراء التي تحدثت عن تاريخ دخول العثمانيين إلى مدينة قسنطينة أنظر: عبد القادر دحدوح، مدينة قسنطينة خلال العهد العثماني دراسة عمرانية أثرية، رسالة مقدمة ليل شهادة الدكتوراه في الآثار الإسلامية، معهد الآثار جامعة الجزائر، 2010/2009، ج 1، ص 91-96. أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط 4، 2005، ج 1، ص 332.
- E.Vayssettes, «Histoire de Constantine sous la domination Turque de 1517 à 1837», in: *Recueil des Notices et Mémoires de la société Archéologique de la province de Constantine*, 1867, P39-44.
- 6-E. Vayssettes, op-cit, P275-285.
- 7- محمد الصالح العنتري، فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها، مراجعة وتقديم وتعليق يحي بوغزيز، دار هوم، الجزائر، 2007، ص 43-44.
- 8- الموافق: ديسمبر 1552م.

- 9- طاهر راغب حسين، تاريخ نقود دول المغرب من 441 إلى 982هـ دراسة في التاريخ والحضارة، د.م.ط، ط1، 1994/1415، ص280.
- 10- رشيد (بورويبة)، قسنطينة، سلسلة الفن والثقافة، وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر، 1980، ص 126-127.
- 11-E.Mercier, «Constantine Avant la Conquête Française 1837», in: *Recueil des notices et mémoires de la Société Archéologique de Constantine*, 1878, P66-67,76, 81-86.
- أما فيما يخص باقي الدراسات أنظر: فندلين (شلوصر)، قسنطينة أيام احمد باي، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007، ص 76.
- Ministère de la Guerre, tableau de la situation des établissements français dans l'Algérie, Paris, 1838, P80. L.Feraud, «les anciens établissements religieux musulmans de Constantine», in *Revue Africaine*, 1968, P130.
- 12- يبلغ عدد هذه السجلات 12 سجلا، وهي مؤرخة بين سنتي: 1202-1253هـ/1787-1837م، تضم عقودا مختلفة للبيع والشراء والوقف وتقسيم التركات وإن كان يغلب عليها عقود الزواج والطلاق، وهي تتواجد حاليا بأرشف ولاية قسنطينة.
- 13- حقق هذا المخطط مؤخرا من طرف الأستاذة فاطمة الزهراء قشي، كما توجد منه نسخة مخطوطة مصورة بأرشف ولاية قسنطينة.
- 14- يتضمن هذا السجل معلومات قيمة بخصوص الحرفيين والصناع وأماكن إقامتهم، وأسماء الدور والأحياء والأزقة والشوارع، وهو مؤرخ بسنة 1256هـ/ 1840-1841م، وقد اطلعنا على نسخة مصورة منه بأرشف ولاية قسنطينة.
- 15 - E.Mercier, op-cit, P66-67,76, 81-86.
- 16- أرشف ولاية قسنطينة.
- 17- أرشف ولاية قسنطينة.
- 18- عبدالقادر دحلوح، المرجع السابق، ج1، ص264.
- 19- خصصت لهذا الجانب دراسة مفصلة قدمت للنشر في مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، العدد 12 (تحت الطبع).